

الغظ في البرهان والحجاج وأثره في عملية التواصل من خلال البحث الأصولي للشريف التلمساني

أ/ بووشمة معاشو

أستاذ مستخلف . جامعة وهران

يجمع علماء اللغة على أنهم وظيفة تؤديها اللغة هي الوظيفة التواصلية⁽¹⁾، والهدف الأساسي من استعمال اللغة هو تحقيق التواصل، والإبانة عن الغايات، بيد أن للغة وظائف أخرى يمكن اعتبارها تكميلية . وبما أن أنظمة التواصل متنوعة ومتداخلة، وتهدف إلى توصيل الأفكار وتبليغ الأغراض لتحقيق التفاعل والتفاهم وهي "... الوسيلة الوحيدة القادرة على إبلاغ الفكر من المتحدث إلى السامع بسهولة وتيسر، وبسرعة فائقة؛ لأن اللغة هي أقدر الوسائل على التبليغ والتوصيل..."⁽²⁾، فهي الأداة المثلى في تحقيق عملية التواصل.

ويعتبر التواصل عملية تبنى أساسا على تبادل الرموز وخاصة اللغوية منها، من أجل تحقيق التفاهم والتفاعل بين الأشخاص. شريطة أن يتحقق الاشتراك بحيث يكون "... سلوكيهد فالبا لتأثير في الغير، في إطار قواعد اجتماعية منظر فوضعية الشريك وخصوصياته، فهو يكتسب تعاقدا ضمنيا، و تشاركنا بينا فالعنا لأساسيين..."⁽³⁾، ولا يتحقق الاشتراك إلا من أجل تحقيق التفاعل الذي يعتبر "... نوعنا لتفاهمنا لعلنا لخلق تفاهم بين مجموعة الذات داخل مجال عمومي..."⁽⁴⁾، وهما ركيزتا العملية التواصلية، بطريقة تبادلية وتوافقية بين طرفين أو متحدثين، ويحدث الخلل في حال الإخلال بين الأطراف في مجال الفهم والتبادل والاشتراك، ويكون منشأ الأداة الأولى وهي اللغة أو مجموعة الرموز التي تتطلب تحديدا مشتركا، من حيث أن ما لا يتفق على معناه ولا تشارك فيه لا يمكن أن يحقق التواصل .

من هذا المنطلق اهتم العلماء بعلم اللغة من حيث الدلالة والتركيب والتداول، بحيث يكون التركيب هو العلم الذي يهتم بدراسة العلاقات القائمة بين التعابير اللغوية بعضها ببعض، ويهتم علم الدلالة بدراسة الرموز وعلاقاتها بما تشير إليه، أما التداولية فتعنى بدراسة المعنى في الألفاظ اللغوية عند مستخدميها ومفسيها. ويطرح اختلاف المعنى وتفاوته بين الأشخاص إشكالية ثانوية حاول بعض علماء الغرب التطرق لها أمثال "غرايس" "ستين" و"سيرل" الذين يمكن اعتبارهما أهم من وضع أساس التداولية في مجال فلسفة اللغة المتداولة.

لقد اجتهد "سيرل" من أجل تحليل المعنى المحدود المتعلق بشروط الحقيقة، حيث توصل إلى الفصل وتوضيح الاختلاف بين ثنائية ما يقال وما يعنى. ويرى "جرايس" أن الاختلاف تسببه الهوية الموجودة بين هذه الثنائيات في الخطابات، ففي الوقت الذي يكون فيه ما يقال هو ما تعنيه الكلمات ظاهريا وغالبا ما

يمكن تحديده وفق شروط الحقيقة فهو يتحقق عن طريق المعاني الواضحة . يكون ما يعننا التأثير الذي يحاول المتكلم إحداثه في المتلقي من خلال إدراكه ، من أجل تحقيق قصد المتكلم ، وقد ركز "أوستين" على هذا النمط باعتباره الجزء الخاص بالتداولية. لأن البحث الدقيق يتطلب الكشف عن علاقات الأدلة بمؤوليها والتي تستلزم معرفة علاقات الأدلة بعضها ببعض ومعرفة علاقة الأدلة بالأشياء التي يحيل عليها المؤلفون.

وكان هذا التداخل أو الاختلاف في تحديد علاقات المؤول بالمخاطب والعلامة اللغوية المشتركة بينهما ، سببا في اختلاف العلماء في قراءة النصوص وخاصة النصوص التشريعية. لذلك اهتم علماء الأصول باللغة والبلاغة الأمر الذي جعل كثيرا من النقاد يعتبرون الأصوليين البلاغيين أقرب من غيرهم إلى المنهج التداولي ، فقد عكفوا في حقل البلاغة على البحث في العلائق القائمة بين اللغة والمنطق ، وبالتحديد دراسة اللغة الحجاجية وتأثيرات الخطاب في السامعين .

ويأتي كتاب أبي عبد الله الشريف التلمساني (5) "بيان منارات الغلط في الأدلة" (6) الذي يعتبر أهم دراسة تراثية لم تول العناية الكافية سواء في مجال أصول الفقه أو مجال فلسفة اللغة وجوانب التداولية منها ، وفي علاقة اللغة بالمنطق في نطاق تفسير النصوص واستنباط الأحكام.

وما يميز كتاب الشريف التلمساني هو أسبقيته على ما قدمته الدراسات اللسانية الحديثة في مجال البحث الدلالي والتداولي على حد سواء ، من حيث المطابقة أي دلالة اللفظ على تمام المعنى الذي وضع له والتضمين وهو دلالة اللفظ على جزء المعنى الذي وضع له ، وما شابهها من بحوث خاصة ما تعلق بالبحوث المرتبطة بثنائية المجاز والحقيقة ، والتي حللها درس الدلالي الغربي الحديث ، فكان الشريف التلمساني قد عرض لها أولا في كتابه "مفتاح الوصول إلى علم الأصول" إلا أنه أفرد لها بحثا مستقلا في هذا الكتيب الصغير والذي يمكن اعتباره أول دراسة تراثية جزائرية محضنة في مجال التواصلية والتداولية قبل أن تكون لغوية أصولية. والدور الفعال الذي يمكن أن يلعبه في تطوير البحث حول الخطاب التداولي والتواصلية الجزائري . وما له من دور ايجابي في تطوير مسار البحوث العربية في هذا المجال. وهو الذي بذل جهدا يمكن إدراجه ضمن أهم جهود علماء الدلالة العرب.

يعلن المؤلف منذ البداية أنه يعالج ما يثير الغلط أو سوء الفهم الذي يربك ويغالط الأصولي في فهم النص وادراك حقيقة مراد الشرع ، فيجانب الصواب في فهم الأدلة وبالتالي يخطئ في استنباط الأحكام . ويسمى هذا في مجال التداولية التي بلورت مباحث التواصل وطورتها "عوائق التواصل" ، الناتج بالأساس عن سوء الفهم وهو يقوم على سوء تمثّل الحقائق والمدرجات من جهة واختلال في القاعدة البلاغية القديمة التي تشترط استعمال اللفظ فيما وضع له في اصطلاح التخاطب " ...بلوغ الحقيقة سيصبح الرهان التداولي الأساس .. ليتجه فيما بعد نحو ايتيقا تواصلية منطوقها: إن فهمنا أفضل يؤدي بالضرورة إلى

تواصل أفضل...⁽⁷⁾ والحاصل أن الاريك في الفهم هو الذي يخرج الكلام من موافقة القصد إلى المخالفة، فينتج عنه إرباكاً لعملية التواصل التي تربك عملية التفاعل والتشارك لأن "...أفعال اللغة هي أفعال الانسان.."⁽⁸⁾ وهي التي تشكل دوافعها والغلط الناشئ في هذا المستوى ينسحب على الآخر.

يوزع الشريف التلمساني أسباب نشوء الغلط أو الوهم في الأدلة والحجاج والبراهين إلى جوانب متعلقة باللفظ وأخرى متعلقة بالمعنى، وأما تعلق بما يسمى عند الأصوليين مطابقة المعنى "... الغلط في البرهان وغيره من سائر الأدلة والحجاج إما أن يكون من جهة اللفظ، وإما أن يكون من جهة المعنى..."⁽⁹⁾ بينما يقترب من معنى المطابقة والمخالفة ويوضح الفكرة التي تغل أسباب سوء الفهم ويعطي أمثلة منطقية ولغوية على ذلك "...أما الذي من جهة اللفظ : فاعلم - وفقك الله - أن اللفظ إذا طابق المعنى مطابقة تامة، بحيث لا يحتمل اللفظ في الدلالة غير المعنى المقصود، لم يقع غلطٌ بسبب اللفظ البتة. وإذا ثبت أنه لا بد من احتمال في اللفظ، فذلك الاحتمال: إما أن يكون في اللفظ بعد تحقق كونه مفرداً، أو بعد تحقق كونه مركباً، أو يكون لدورانه وتردده بين الإفراد والتركيب..."⁽¹⁰⁾ وهي الحالات الثلاثة التي تنقسم بدورها إلى أنواع ستة هي: ".مثارات الغلط اللفظي وهي ستة: اشتراك الجوهر، واشتراك الصيغة، واشتراك اللواحق، واشتراك التأليف، وتركيب المفصل، وتفصيل المفصل..."⁽¹¹⁾ ويعطي أمثلة عن كل منها:

- أما إن كان بعد تحقق كونه مفرداً فذلك إما أن يكون الاشتراك في جوهر اللفظ ومادته. أو بكونه حقيقة في أحد المعنيين مجازاً في الآخر أو منقولاً أو نحو ذلك⁽¹²⁾.

مثال الاشتراك في جوهر اللفظ كصلاة العشاء بعد الشفق، فإن الشفق مشترك بين البياض والحُمْرة. -وأما الاشتراك في هيئة اللفظ وصورته فمثاله قوله تعالى: ((ولا يضار كاتب ولا شهيد)) قال ابن عباس وعطاء: معناه لا يمتنع كاتب من الكتب ولا شهيد من الشهادة إذا دُعِيَ إلى ذلك، فالفعل عندهما مبني للفاعل. وقال عكرمة وجماعة: معناه أن الداعي لا يضر بهما في وقت شغل أو عذر، فالبناء عندهم للمفعول النائب عن الفاعل..."⁽¹³⁾.

- أو يكون لأمر خارج عن اللفظ عارض له ولاحق من لواحقه⁽¹⁴⁾.

نخلص في الأخير أن المستويات التي أشار إليها الشريف التلمساني كثيرة الحدوث في مجال التواصل خاصة اللساني، وأن منشأ سوء التفاهم ومعوقات التواصل إنما تحدث لسبب من هذه الأسباب، وليس فحسب على مستوى تفسير النصوص، فالكثير من الخطابات والمعنية بالتواصل تحيط بها مغالطات سواء لفظية أو من جهة المعنى أو لتشابه وتشارك المعاني والألفاظ، كما وضح العلامة التلمساني.

الهوامش

- 1- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري: أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2، بيروت/لبنان 2010، ص-61.
- 2- علم اللغة: حاتم صالح الضامن، بيت الحكمة، بغداد، ط، دت، ص-137.
- 3- التواصل نظرياً ومقاربات: مجموعة باحثين، تر: عز الدين الخطيب زهور حوتي، منشورات عالم التربية، ط1/المغرب 2007، ص-15.
- 4- نفسه، ص-15.
- 5- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن علي الحسيني المعروف بالشريف التلمساني، ولد بتلمسان سنة 710 ، وأخذ عن علماء تلمسان والمغرب مثل: أبي زيد بن يعقوب ، وابني الإمام التلمسانيين ، وابن عبد السلام التونسي ، وأبي عمران المشدالي ، والسطي ، والقاضي أبي عبد الله بن هدية ، ولازم الإمام الأبيلي. ألف مفتاح الوصول إلى ابتداء الفروع على الأصول ، وشرح جمل الخونجي ، وكتاب في القضاء والقدر وآخر في المعاوضات. توفي سنة 771. ترجم له ابن مريم في البستان، ص-164 ، والتتبع في نيل الابتهاج ص(430-446).
- 6- نشر بتحقيق الأستاذ مصطفى الوظيفي عن مخطوطتين مغربيين، وأعاد نشره والتعقيب عليه الأستاذ جلال علي عامر عن طريق مقابلة طبعة الأستاذ الوظيفي بمخطوطة للكتاب من مقتنيات مكتبة كوبريلي تحت رقم 7/1601.
- 7- فلسفة التواصل: جان مارك فيري، ترجمة عمر مهيبيل. المركز الثقافي العربي 1427، ص-78.
- 8- نفسه، ص-13.
- 9- بيان ماثرات الغلط في الأدلة: أبي عبد الله الشريف التلمساني بتحقيق مصطفى الوظيفي مطبعة التيسير. الدار البيضاء 1991، ص-21.
- 10- نفسه، ص-22.
- 11- نفسه، ص-24.
- 12- نفسه، ص-25.
- 13- نفسه، ص-26.
- 14- نفسه، ص-27.
- 15- نفسه، ص-27.
- 16- نفسه، ص-29.

المصادر والمراجع

- التواصل نظرياً ومقاربات: مجموعة باحثين، تر: عز الدين الخطيب زهور حوتي، منشورات عالم التربية، ط1/المغرب 2007.
- بيان ماثرات الغلط في الأدلة: أبي عبد الله الشريف التلمساني بتحقيق مصطفى الوظيفي مطبعة التيسير. الدار البيضاء 1991.
- فلسفة التواصل: جان مارك فيري، ترجمة عمر مهيبيل. المركز الثقافي العربي 1427.
- علم اللغة: حاتم صالح الضامن، بيت الحكمة، بغداد، ط، دت، .
- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري: أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2، بيروت/لبنان 2010.